من أجل حفنة من التراب

رحلة إلى فلسطين ولبنان

حميد دباشي*
ترجمة: سماح إدريس

يا دهرُ أكثرتَ البلى والخراب
وَسُمْتَ كلَّ الناس سوء العذابْ

ويا ثرى كمْ فيكَ من جوهر
يَبينُ لو يُنْبشُ هذا الترابْ

عمر الخيّام (ترجمة: أحمد رامي)

مات إدوارد سعيد، الذي كان صديقًا عزيزًا طوال سنوات، ورفيقًا شامخًا على امتداد العمر، في نيويورك في الساعة السابعة إلاّ ربعًا صباحًا من يوم الخميس ٢٠٠٣/٩/٢٥. وبعد مراسم التأبين في كنيسة ريڤرسايد يوم الاثنين في ٢٩ أيلول، أُحرقتْ جثّتُه، وحَمَلتْ أرملتُه مريم سعيد رمادَه إلى لبنان، ليُدفن في برمّانا في جبل لبنان. وكان إدوارد سعيد قد وُلد في القدس يومَ الجمعة في ٢٠٠٣/١١/١، قبل الاحتلال الكولونيالي لوطنه.

يوم الاثنين في ٢٣ شباط ٢٠٠٤ سافرتُ إلى فلسطين وهبطتُ عند نقطة تفتيش بن غوريون. ذهبتُ إلى فلسطين ضمن مجموعة تَحْمل نسخةً موسّعةً من مهرجان سينمائي فلسطيني، كنّا قد نظّمناه في نيويورك في كانون الثاني ٢٠٠٣ بعنوان «أحلام أمة،» إلى أربع مدن فلسطينية. وكان مهرجانُنا الافتتاحي في جامعة كولومبيا في نيويورك قد حظي بنجاح مدوٍّ. فقد عَرَضنا أكثر من ٥٠ فيلمًا، جميعُها من عَمَلِ مخْرِجين فلسطينيين من داخل وطنهم أو خارجه. وقام إدوارد سعيد بإلقاء كلمة الافتتاح في مهرجاننا، وذلك في قاعة مكتظّة في «ليرنر هول» في الجامعة. وسرعان ما اكتسب المهرجانُ ديناميكيتَه الخاصة وراح يرتحل داخل الولايات المتحدة، ومن ثم إلى أوروبا وشمالي أفريقيا وأنحاء أخرى من العالم العربي. غير أنّ مجموعتنا الصغيرة ارتأت أنّه سيكون لزامًا أن نَحْمل مهرجانَنا إلى فلسطين. فوافقتْ «يبوس،» وهي منظّمة ثقافية فلسطينية مركزُها في القدس الشرقية، على استضافته. وهكذا

* ـ حميد دباشي: بروفسور الدراسات الإيرانية في جامعة كولومبيا، ومدير مشارك لمركز الأدب والاجتماع المقارن. زار فلسطين ولبنان ودوّن انطباعاته التي خصّ بها ـ عربيًا ـ مجلة الآداب، تحيّةَ وفاءٍ لإدوارد سعيد

سافرتُ من كوپنهاغن (حيث دعتني دارُ السينما الدانماركية من أجل عرض استعادي يَسْتند إلى كتابي عن السينما الإيرانية) عبر زوريخ، وهبطتُ عند نقطة تفتيش بن غوريون.

لم يستطع أصدقائي الفلسطينيون نقلي من نقطة التفتيش تلك لأنّني هبطتُ الساعة الواحدة صباحًا، وكانوا كلُّهم محصورين داخل رام اللّه المحتلة. لكنّهم دبّروا لي سائقَ تاكسي فلسطينيًا ليأتي من القدس الشرقية ويَنقلَني من المطار إلى «فندق الميلاد،» الذي يقع على مقربة من شارع صلاح الدين في القدس الشرقية، مسافةَ ساعة بالسيارة من نقطة تفتيش بن غوريون.

استغرقني الانتهاء من إجراءات الأمن في بن غوريون ساعتيْن تقريبًا. حين خرجتُ من آخر قاعة للاستجواب كان هناك سائق فلسطيني شابّ في انتظاري، يَحْمل ورقةً عليها اسمي. صعدنا إلى تاكسيه وعَبَرنا سلسلةً أخرى من الحواجز الأمنية التي يَحْرسها مراهقون بملابس عسكرية، وبنادقَ طويلةٍ جدًا تتدلّى من أعناقهم. دَخَلْنا بعد فترة طريقًا عامًا يتّجه شرقًا نحو القدس أثناء الطريق، حين اكتشف «أيمن» أنّني مسلم، دلّني على المكان الذي اخترقَ فيه ذلك الطريقُ ضريحَ واحد من صحابة النبيّ محمد، فجُرف وسُوِيّ بالأسفلت. كما دلّني على عمارة سكنيّة بُنيتْ على أنقاض دير ياسين. كنّا صامتيْن معظم الوقت. وكانت الدنيا مظلمة. لكنّ الهواء منعش، والليلة باردة، وصوتَ الاسفلت تحت عجلات سيّارة أيمن يَبْعث الطمأنينة في النفس. «مِنْ أين أنت؟» سألني. إيراني. قلت إنّني إيراني.

دخلنا القدس حوالى الساعة الخامسة صباحًا، حيث كانت الشمس تَسْطع على قبّة الصخرة التي تجلّل السماءَ الزرقاء المطلّة على المدينة القديمة. طلبتُ من أيمن أن يتوقف لبضع دقائق. خرجتُ من التاكسي، ونظرتُ إلى قبّة الصخرة. لم أكن قد صلّيتُ منذ كنتُ في الحادية عشرة من العمر. كانت القبّة الذهبية تعيِّن تخومَ اللازورد الفضيّ للسماء الشاسعة، متحدّيةً. وكان العالم بأسره صامتًا. رأيتُ بعضَ اليهود الشرقيين يعبرونني بسرعة، إلى مكانٍ غير محدّد.

عدتُ إلى التاكسي، وقادني أيمن إلى المدخل الأمامي لفندق الميلاد. كان مغلقًا، ولكنّي ما إنْ وقفتُ عند عتبته أتساءل عمّا سأفعله حتى ظهر رجل من داخل الفندق، من قلب عتمته، ففتح البابَ ورحّب بي. أجريتُ معاملات الدخول وطلبتُ إذنًا باستخدام الكومبيوتر في الردهة.

أرسلتُ بضع رسائل إلكترونية إلى أصدقائي وعائلتي، أُطَمْئنهم فيها بأنّني هبطتُ بسلام في فلسطين وأنّ كل شيء على ما يرام «لقد هَبَطتُ في وطنك،» كتبتُ لرشا السلّطي، وهي صديقة فلسطينية في نيويورك، «وجهُه محتجبٌ ولكنّه مايزال جميلاً.»

حملتُ حقيبة ظهري إلى الطابق الثاني حيث غرفتي، وهي مهجعٌ متواضعٌ ولكنّه ناصع النظافة. لم أكن قادرًا على الراحة بسبب استثارتي الشديدة. نزلتُ من جديد إلى ردهة الفندق، حيث ظَهر ثانيةً ـ ومن قلب العتمة ـ الرجلُ الذي سبق أن فَتَح لي الباب، وسألني إنْ كان يستطيع مساعدتي. قلتُ إنّني أتساءل ما إذا كان الحرم الشريف قريبًا من الفندق. قال نعم، وأشار باتجاه شارع صلاح الدين حيث يتوجّب أنْ أَعْبر بضعة منعطفات لأصل إلى هناك. كانت الشوارع ما تزال هادئةً، والدكاكين مغلقة. شاهدتُ يهودًا ملتزمين آخرين يحثّون الخطى نحو مكان محدّد. ثم رأيت جندييْن إسرائيلييْن مراهقيْن، بنظّارات شمسية مزوّقة، وبندقيتيْن تتدلّيان من رقبتهما. لم تكن نظّاراتُهما ضرورية؛ فالشمس لم تكن قد طَلَعتْ بعد. بدا عليهما التعب. لم يعيراني أيّ انتباه. كانا منشغليْن بالكلام. وأنا لا أَفْهم العبرية.

عند منعطف أحد الشوارع رأيتُ لوحةً للإعلانات العامة، ولاحظتُ عدةَ ملصقاتٍ بارزة عن مهرجاننا معلّقة على تلك اللوحة: «أحلامُ أُمّة: مهرجان الفيلم الفلسطيني» آن ماري جاسر، شريكتي الأساسية في هذا المشروع، بذلتْ طوال شهور جهدًا كبيرًا لإقامة المهرجان بالتعاون مع مضيفتنا منظمة يبوس. كانت بعضُ الملصقات قد مُزِّقتْ على لوحة الإعلانات، فأصلحتُها.

من شارع صلاح الدين بلغتُ شارعًا عامًا محيطًا بالحصن الرئيسي التي ينتصب فيه الحرمُ الشريف. كانت حركة الصباح الباكر قد بدأتْ بالتكاثف. عَبَرْتُ الشارع الرئيسي ومشيتُ باتجاه ما علمتُ لاحقًا أنّه «باب الزهرة» لم أعرف تمامًا إلى أين أذهب، لكنّي كنتُ مدفوعًا إلى عبور البوّابة باتجاه السوق.

عند مدخل السوق ثلاثةُ جنود إسرائيليين يَحْرسون البوابة: أحدُهم أبيض تبدو عليه ملامحُ السلطة، والآخران أسودان تحت إمرته. سألتهم، دون أن أوجّه سؤالي إلى أيّ منهم على وجه التعيين بل إلى المجموعة الفلكية كلّها، إنْ كانت تلك البوّابة تفضي إلى قبّة الصخرة. لم يُجبني أحد، في حين انحرفتْ نظرةُ الجنديْن الأسودَيْن شيئًا فشيئًا عنّي باتجاه رئيسهم الأبيض. لم ينظر الجنديُّ الأبيض إليّ، ولم يحرّك رقبتَه المستقيمةَ الواثقة. لم يكن يرتدي نظّارات شمسية، لكنّه بدا وكأنّه يرتديها فعلاً. انتظرتُ جوابًا، ومثلي فعَلَ الجنديان الأسودان. كانا أكبرَ سنًا بقليل من الجنود الذين رأيتُهم في المطار، ومن ثم قرب الفندق. كانا ربّما في أوائل العشرينيات، يلوِّحان ببندقيتيْن طويلتيْن تتدلّيان من عنقيْهما. بدا عليهما التعب ـ كانا على أهبة الاستعداد للعودة إلى البيت والنوم فورًا. لم يكن ثمة جواب. لم أستطع أن أواصل السيرَ بعيدًا عنهم لأنّني سألتُهم سؤالاً، وبقي السؤالُ معلّقًا في الهواء، فأحسستُ أنّني مُلزَم بانتظار ولو إشارةٍ أو إيحاءٍ بجوابٍ ما لكي تتسنّى لي المغادرة. ولكنْ لا جواب قطّ. ألقى الجنديان نظرةً عصبيةً عليّ، فبادلتُهما بالمثل، وبِتْنا ـ ثلاثتنا الآن ـ تحت رحمة الضابط الإسرائيلي الأبيض، المصمِّم على عدم النظر إليّ ولا الردّ على سؤالي. كنّا أشبه بثلاث حَمَامات مسمَّرات تحت سِحْرِ أفعى «كوبرا،» ننتظر تحرُّكَه. لم يتحرّك. لن يتحرّك. ربما استغرق ذلك بضعَ ثوانٍ لا أكثر، لكنّه امتدّ دهرًا كاملاً ـ فقد توقّف الزمنُ، في إطارٍ مجمَّد، لا أحد يَعْلم شيئًا إلاّ أربعتنا: ثلاث حَمَامات مجمّدة وأفعى

كوبرا جبّار. تحرّكَ الكوبرا أخيرًا (أتراه فعلَ ذلك حقًّا؟)؛ رقبتُه، ربما، على نحو عصيّ على الإدراك كما هي حالُه دائمًا؛ هكذا فكّرتُ، تخيّلتُ، أَمِلْتُ؛ وربّما تحرّكتْ شفتاه أيضًا، أو هذا ما تمنّيتُه لم أكن متأكّدًا، لكّنني جازفتُ. تأمّلتُ شفتيْه، سمعتُ صوتَه ـ وقلتُ «شكرًا» لِلاأحد معيّن، بل للمجموعة الفلكية المؤلّفة من الحمامتيْن الباقيتيْن والكوبرا، وغادرتُ

كان الزقاق الملتفّ مليئًا بالدكاكين المغلقة، ولم يكن إلاّ قلّة من أصحاب الدكاكين يرتّبون بضائعهم للعرض كانت الأزقة مهجورة إلاّ من بضعة مُسنّين يسيرون على غير هدًى رأيتُ إشارةً إلى قبّة الصخرة على قنطرة قديمة، فتَبِعْتُها. في نهاية الزقاق وجدتُ مجموعةً من الجنود الإسرائيليين. لم أنظر إليهم. هم نظروا إليّ تظاهرتُ بأنّني أعرف إلى أين أسير. لم أكن أَعرف كنتُ عصبيًا. مذعورًا.

في نهاية الزقاق الشديد الانحدار رأيتُ مَوْقعًا للجيش الإسرائيلي إلى يساري، يَحْرسه جندي مراهق ببندقية طويلة تتدلّى من رقبته. وإلى يميني مباشرةً كان المدخل إلى إحدى المقابر. على لوح أبيض كُتِب بحبرٍ أسود أنّ هذه المقبرة تحوي ضريحَ صاحبيّيْن من صحابة النبي: الصحابيّ الجليل عبادة بن الصامت (ت ٣٤ هـ) والصحابي الجليل شدّاد بن أوس (ت ٥٨ هـ). كان في جيبي قلمٌ وورقة أخرجتُهما وكتبتُ ذيْنك الاسمين. دخلتُ المقبرة وبدأتُ أتلو الفاتحةَ همسًا. بعد خطوات قليلة داخل المقبرة التقيتُ فلسطينيًا مُسنًا. «صباح الخير،» قلت: «صباح الخير» أجاب مبتسمًا وسألني إنْ كنتُ مسلمًا قلتُ نعم. «السلام عليكم يا أخي،» قال، فأجبتُه «وعليكم السلام يا أخي » تساءل مِنْ أيّ بلدٍ أنا من إيران، قلتُ سألني إنْ كنتُ شيعيًا قلتُ نعم تساءل إنْ كانت هذه هي زيارتي الأولى إلى القدس، وإنْ كنتُ أريد زيارةَ الضريح المقدّس للصحابيّيْن الجليليْن. قلتُ نعم إنّها زيارتي الأولى، ونعم أريد زيارةَ الضريح

قادني المُسِنّ الفلسطيني المسلم، وتبِعْتُه. كان في مقدوري أن أرى كنيسةً عند المنحدر إلى يساري، وحائطًا طويلاً إلى يميني. في منتصف الطريق إلى المقبرة بدأ دليلي المرتجَل بالصعود من المَمشى الضيّق باتجاه الحائط. تَبِعْتُه. عند أسفل الحائط مررنا بمقبرة متواضعة: إنّه قبر الصحابيّ الجليل عبادة بن الصامت، كما ذكرتْ إشارةٌ متواضعة مربوطة إلى سياج معدني حول القبر. لمستُ السياج وتَلَوْتُ في نفسي الفاتحةَ. انتظرني الفلسطيني المسنّ حتى انتهيت، ثم ذهب بعيدًا باتجاه الجانب الآخر من المقبرة حيث ضريحُ الصحابيّ الجليل شدّاد بن أوس. توقّفنا، وتلوتُ الفاتحةَ من جديد. كان الطقس الصباحي فاترًا، ساكنًا، مسكّنًا. وكان الهواء يتضوّع برائحة الخبز الطازج، والتراب، والزعتر، وشجر الزيتون.

نزلنا المنحدر، وقفزْنا من آخر صفّ المقابر إلى الدرب الضيّقة سألني إنْ كنتُ أريد الذهابَ إلى المسجد الأقصى. قلتُ نعم.

سألني إنْ كان صحيحًا أنّ الشيعة لا يبالون بصحابة نبيّنا. قلتُ لا سألني إنْ كنتُ أؤمن بقداسة «العشرة المبشّرة،» أنبُل صحابة النبيّ، الذين بُشِّروا بالجنّة وهم بعدُ على قيد الحياة. قلتُ لا، نحن الشيعة لا نؤْمن بقداستهم ولا بعصمتهم لأنّ فيهم الخلفاءَ الثلاثةَ الأوائل الذين نعتقد أنّهم اغتَصَبوا حقَّ عليّ، أميرِ المؤمنين، الذي كان هو الوريث الحقّ لنبيّنا. «شو يعني؟» توقّف دليلي فجأةً ونظرَ إليّ، وتسلّلَ تردُّدٌ مرتبك من تحت روحه المضيافة الصافية تجاه أخ له في الإسلام سألني إنْ كنتُ أؤمن بالخلفاء الراشدين. سألتُه إنْ كان يَعْلم أين أستطيع شراء زعتر فلسطيني جيّد! ابتسم وقال طبعًا، وإنّه سيأخذني إلى أحسن دكّان للزعتر في القدس.

خرجنا من المقبرة، وانعطفنا يسارًا وسِرْنا باتجاه المدخل الأول للحرم الشريف كان هناك بضع جنود إسرائيليين عند بداية الممرّ الطويل المؤدّي إلى البوّابة سألني أحدُهم إلى أين أذهب. قلت إلى المسجد الأقصى سألني إنْ كنتُ مسلمًا. قلت نعم سَمَح لي وللفلسطيني بالعبور. انعطفنا يسارًا، فتخطّيْنا الجنود الإسرائيليين، وسِرْنا باتجاه نهاية الزقاق، حيث بوّابةٌ زرقاءُ ضخمة تَحْرسها مجموعةٌ أخرى من الجنود الإسرائيليين. أمامنا فلسطيني مسنّ آخر في جلابيّةٍ بنيّةٍ داكنة، يمشي بعكّاز، بطيئًا نحو البوّابة خَفَّفنا سرعتَنا وتبعْناه كان يَهْمس بشيء حين مَرّ بالمجموعة الأولى من الجنود الإسرائيليين «يا إخوات الشرموطة!» سمعتُه يقول، «يا إخوات المنيُوكة!» وأعتقد جازمًا أنّني سمعتُه يقول «يا حكّام الـ...!»

اقتربْنا نحن الثلاثة من البوّابة الزرقاء الكبيرة ومن المجموعة التالية من الجنود الإسرائيليين، الذين سَمَحوا للفلسطينيّيْن بالمرور ولكنّهم أوقفوني. أحدُهم سألني إلى أين أذهب قبل أن أقول شيئًا، استدار دليلي الفلسطيني وقال له بالعبرية ما اعتقدتُ أنّه من قبيل أنّني ذاهب إلى المسجد الأقصى تجاهَلَ الجندي الإسرائيلي دليلي الفلسطيني، وواصل النظرَ إليّ والتحدّثَ إليّ بالإنجليزية عَبَرَ الفلسطينيان البوّابة، فأُغلقتْ وتُركتُ وحيدًا مع الجنود الإسرائيليين «أنت مسلم؟» سألني. نعم، قلتُ. «دعني أَرَ جوازَ سفرك،» قال. فتّشتُ عن جوازي لكنّني أدركتُ فجأةً أنّني تركته في جيب معطفي في غرفتي في الفندق قلتُ إنّ الجواز ليس معي، ولكنّه لن يستطيع أن يَعْرف

من جوازي إنْ كنتُ مسلمًا لأنّني سافرتُ بجواز سفر أميركي.

أثناء هذه المحادثة بين الجندي الإسرائيلي وبيني، إذا بالبوّابة الزرقاء الهائلة المفضية إلى الحرم الشريف تنفتح فجأةً، فيَخْرج منها رجل فلسطينيّ طويل وضخم، التَفَتَ إلى الجندي الإسرائيلي، وقال به بالإنجليزية: «دعه يدخل، إنّه مسلم.» دمدم الجنديّ الإسرائيلي شيئًا بالعِبرية. فأجابه الفلسطيني بالإنجليزية ثانيةً: «لا، إنّه مسلم، دعه يدخل.» استدار الجندي الإسرائيلي وانصرف، وسَمَحَ لي الفلسطينيّ بدخول المدخل المؤدّي إلى الساحة الشاسعة. أغلق البابَ من ورائي وسأل: «أنت مسلم؟» نعم قلتُ. «دعني أسمعْك تتلو القرآن.» قال باسمًا. أُصبتُ بالذعر وغمغمتُ شيئًا. كلُّ ما استطعت أن أتذكّره كان الآيات الأولى من سورة البقرة. ﴿ألم﴾، قلتُ بعصبية، والكلماتُ لا أكاد أسمعُها أنا بنفسي، ﴿ذلكِ الكتابُ لا رَيْبَ فيه هُدًى للمُتّقين﴾. قاطعني: «هذه طويلة جدًا. هل تستطيع أن تتلو الفاتحة؟» «نعم،» قلتُ، ﴿بِسْمِ اللّهِ الرّحْمنِ الرّحيم﴾، وأكملتُ بارتباك أقلّ، ﴿الحمْدُ لِلّهِ ربِّ العالمين، الرّحْمنِ الرّحيم، مالِكِ يَوْمِ الدّين﴾...» كان الحارس يستمع إليّ بتوقير، هامسًا بالآيات لنفسه، معي وبَعدي، كأبٍ يُشْرف على ابنه يؤدّي أمام الملإ شيئًا فَعَلَه سابقًا، فهو يخشى أن يَزلّ أو ينسى شيئًا محفوظًا. لكنّني لم أخطئ، إلى أن وصلتُ إلى نهاية الفاتحة. وكان الحارس، في كلّ آية مرتجفة تَطْلع من فمي، ينبسط وجهُه الحكيمُ والسخيُّ برحابة واسعة، وتلتمع عيناه بصحّةِ حَدْسه. «أهلاً وسهلاً يا أخي،» قال لي حين انتهيتُ، «أهلاً بك في فلسطين! إنتَ مِشْ بَسْ مسْلم، إنتَ إيراني كمان، لأنّك ما بتِعْرف تلْفظ القاف. هذه قاف يا حبيبي، مشْ غاف ـ يعني الكلمة هي ﴿المستقيم﴾ بالقاف مش المستغيم بالغيْن.» ابتسمتُ له بدوري وأنا أَشْعر بالخجل، وحاولتُ أن أقول ﴿المستقيم﴾ بأفضل ما وَسِعني ذلك. ثم استدرتُ فرأيتُ أنّ دليلي الفلسطيني من المقبرة كان يشاهد ذلك العرضَ باستحسان، مذهولاً تمامًا، وقد بَرّأ نفسَه من اتهامه إيّاي بعقيدتي ـ وإنْ شابَ هذه العقيدةَ شيءٌ من «التشيّع.»

باحة الحرم الشريف واسعة، مسطّحة، ومليئة بشجر الزيتون. ظَهَرَ حارسان فلسطينيان آخران، فسألاني إلى أين أذهب. قال دليلي الفلسطيني إنّني شيعي ذاهبٌ إلى المسجد الأقصى. لم يطلبا منّي أن أتلو شيئًا من القرآن، وسمحا لنا بالذهاب.

ما إن اقتربْنا حتى لاحظتُ أنّ الأبواب مغلقة. «كقُبّة الصخرة دواخِلُهُم منحوتة / وأما خارجهم فقد خلّفوه للخراب»: كان بيت سعدي الشهير في وصف المتصوّفة أولَ ما قفزَ إلى ذهني، بعد أن زار هذا المكانَ في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). واضح أنّ قبّة الصخرة حين جاء سعدي إلى هنا كانت في حالة عَطَب شديد تقدّمتُ من حائط القبّة الخارجي وقبّلتُ بلطفٍ بلاطَه السيراميك ذا المربّعات الزرقاء والصفراء. طُفْتُ حول القبّة، حيث نعتقد أنّ نبيّنا صعد إلى السماء السابعة، ثم نزلتُ على الدّرجات من الجانب الآخر ومشيتُ باتجاه المسجد الأقصى. ورائي الآن المكانُ الأساسيُّ في المخيال الإسلامي حول نشوء الكون، وأمامي أشهرُ مسجدٍ مرتبطٍ بذلك المخيال. أحسستُ بالألفة

شرح دليلي الفلسطيني لحارس يَجْلس داخل غرفة عند باب المسجد الأقصى أنّني مسلم، وأنّني شيعي، وأنّني إيراني وأريد دخول المسجد. ابتسم الحارس ورحّب بي. هنا قال دليلي إنّ عليه العودة إلى السوق للاهتمام بعمله. شكرتُه وودّعتُه. وفيما هو يغادر اقتربتُ من المسجد فخلعتُ حذائي ووضعتُه داخل غرفة صغيرة عند المدخل، شبيهةٍ جدًا بغرف تذكّرتُها من زمن طفولتي في مدينتيْ «قم» و«مَشْهد» ودخلتُ المسجد إنّه مسجد وسيع، مرحِّب، مُطَمْئن، مكسوّ ـ من الحائط إلى الحائط ـ بطبقات ملطِّفة من السجاجيد؛ وثمة هدوء مفاجئ، سوريراليّ تقريبًا، يَنْضح من ثقته المكانية. سِرْتُ ببطء نحو عمود إلى يسار المسجد كان ثمة رجال ونساء، من دون أيّ حاجز أو مسافة بينهم، يؤدّون صلواتهم أو يقرأون القرآن ـ وهذا مختلف كثيرًا عن المساجد الإيرانية التي لا يُسْمح فيها للرجال والنساء بأن يكونوا معًا. جلستُ عند قاعدة أحد الأعمدة، فتناولتُ مصحفًا وبدأتُ بقراءة الفاتحة وسورة البقرة ـ محاولاً أن أَلْفظ «القافات» كما ينبغي. ثم جلستُ هناك، وتطلّعتُ من حولي. لم يكن أحد يعيرني أيَّ اهتمام. لقد مضى زمن طويل نسيتُ فيه أنّ للصمت صدًى، أنّ للسلام حضورًا، أنّ السكينة المُطْلقة يُمْكن أن تملأ فضاءً بهذه الضخامة. من أين هذا السلام الوافر؟ كم فلسطينيًا قُتِل هنا وهو يحاول أن يَمْنع تدنيسَ هذا المكان وتدميرَه ومحوَ قلب أحد الأديان العالمية؟

بعد دقائق قليلة نهضتُ وغادرتُ المسجد بوداعة. انتعلتُ حذائي عند الباب، وشكرتُ الحارسَ الفلسطيني في غرفته، واتّجهتُ عائدًا إلى فندقي.

❖ ❖ ❖

شغلتي مواصلاتي المتكرِّرة بين القدس ورام الله، مع زياراتٍ إلى بيت لحم وبيت ساحور والناصرة ونابلس ـ بما في ذلك الحواجز الإسرائيلية التي لا تُحصى بينها جميعًا ـ طوال الأيام التي تلت، فلم أتمكّن من العودة إلى الحرم الشريف إلاّ يومَ الجمعة في ٢٧ شباط. تناولتُ إفطاري باكرًا ذلك اليوم في فناء فندق الميلاد الخلفي واتّجهتُ صوب باب الأسود حوالى الثامنة صباحًا. كان الحضور المسلّح الإسرائيلي أكثفَ بكثير، وذلك في استباقٍ واضح لصلاة الجمعة عند الظهر. مررْتُ بعدة تجمُّعات للجنود الإسرائيليين، ودخلتُ الحرم الشريف بسهولة نسبيًا. كان الوقت ما يزال باكرًا لصلاة الظهر، ولم يكن الناس كُثُرًا هناك. ذهبتُ مباشرةً إلى قبّة الصخرة فوجدتُ أبوابها مفتوحة، وكهلاً فلسطينيًا يَجْلس على مصطبة صغيرة عند المدخل الرئيسي حيَّيْتُه، ونزعتُ حذائي، ثم دخلت. لم يكن هناك أكثر من مئة شخص، رجالاً ونساءً، يصلّون في أنحاء مختلفة من المسجد. طُفْتُ حول الصخرة ثم اقتربتُ إليها من

زاويةٍ تجمَّعَ عندها بعضُ الزوّار حول رجل يقدِّم لهم تقريرًا تاريخيًا عن أهمية قبّة الصخرة. رحتُ أستمع إلى الرجل يتحدّث عن الآية القرآنية الخاصة بمعراج النبيّ ليلاً: ﴿سُبْحانَ الَّذي أَسْرى بعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المسْجِدِ الحرام إلى المسْجِدِ الأَقْصى﴾.

بعد دقائق قليلة استدرتُ وانتَحَيْتُ جانبًا ورحتُ أنظر إلى الأعلى. ثمة سكينةٌ ثابتةٌ في هواء المبنى، كأنّ الصخرة التي تنتصب عاريةً ومعرّضةً في وسطه تَعْرف نفسَها. لاحظتُ مجموعةً من النساء يصلّين، ويقرأْن القرآن، ويتحدّثن بهدوء. ورأيتُ أطفالاً يمسكون بأيدي آبائهم ـ ساكنين، لعوبين بهدوء، أحدُهم مندهشٌ بعضَ الشيء. لم يبدُ على الناس أنّهم أغنياء ولا فقراء، ولا مسنّون ولا شباب، ولا سود ولا بيض، وكان يَصْعب التمييز بين النساء والرجال في جلاّبياتهم أو عباءاتهم الطويلة. انسلّ شعاع شفّانيّ من الضوء إلى الميدان منبعثًا من البوّابة الرئيسة وكأنّه في عجلة من أمره، وانتشرتْ ظلالُه وخيالاتُه في كل مكان. لم أستطع أن أَسمع شيئًا. كنتُ أَشبهَ بالأصمّ.

غادرتُ قبّة الصخرة أخيرًا. حملتُ حذائي من الغرفة الصغيرة عند الباب، وانتعلْتُه قبل أن أنحدر النَّجْدَ الذي تقع عليه الصخرة. ثمة سوق صغيرة داخل الحرم الشريف يبيعون فيها أشياء دينية مختلفة، لكنّ أصحاب المخازن كانوا يبيعون أيضًا نسخًا مقرصنةً عن أفلام لأرنولد شوارزنغر وتوم كُرُوز. اشتريتُ علاّقةَ مفاتيح صغيرة عليها صورةُ قبة الصخرة. كانت أرخص بكثير من أقراص الـ DVD لأفلام مثل Terminator II و Mission Impossible.

همْتُ زمنًا في الفضاء الممتدّ بين قبّة الصخرة والمسجد الأقصى. كان يومًا جميلاً مشرقًا من أواخر شباط. النّور ضاربٌ إلى الرمادي، والجدرانُ من حولي مضيئة. شيئًا فشيئًا رحتُ أَخرج من الحرم الشريف عبر باب الفيصل، وانعطفتُ يمينًا نحو باب الأُسود، فتجاوزتُ موقع الجيش الإسرائيلي إلى يساري، ودخلتُ المقبرة. همستُ بالفاتحة وأنا أتوجّه مباشرةً إلى ضريحَي الصاحبيّيْن. صعدتُ المرتفع باتجاه ضريح الصاحبي الجليل عبادة بن الصامت. وقفتُ أمام القبر، وأمسكتُ بالسياج المعدني، وتلوْتُ الفاتحة من جديد، ثم انتزعتُ من جيبي كيسًا بلاستيكيًا صغيرًا كنتُ قد جلبتُه من نيويورك، فانحنيْتُ فوق القبر وشرعتُ أحفر ثقبًا صغيرًا بأصابعي، مستخرجًا بعضَ التراب، الذي وضعتُه بعد ذلك داخل الكيس. وبعد أن تجمّع لديّ نصفُ حفنة من التراب في الكيس تقريبًا نهضتُ واقتربتُ من ضريح الصحابي الجليل شدّاد بن أوس، فهمستُ بالفاتحة ثانيةً، وانحنيتُ فوقه، وحفرتُ بأصابعي ثقبًا صغيرًا، فانتزعتُ منه ترابًا أضفتُه إلى الكيس. الآن صار لديّ حفنة كاملة تقريبًا من التراب، من ضريحيْ صاحبيّيْن من صحابة النبي، دُفِنا في القدس.

نهضتُ، فدَسَسْتُ الكيسَ البلاستيكي في جيبي وتوجّهتُ عائدًا إلى المنحدر، بعيدًا عن الحائط، نحو آخر صفٍّ من المقابر. رأيتُ مجموعة صغيرة من الجنود الإسرائيليين، فتيانًا وفتيات، في زيّ

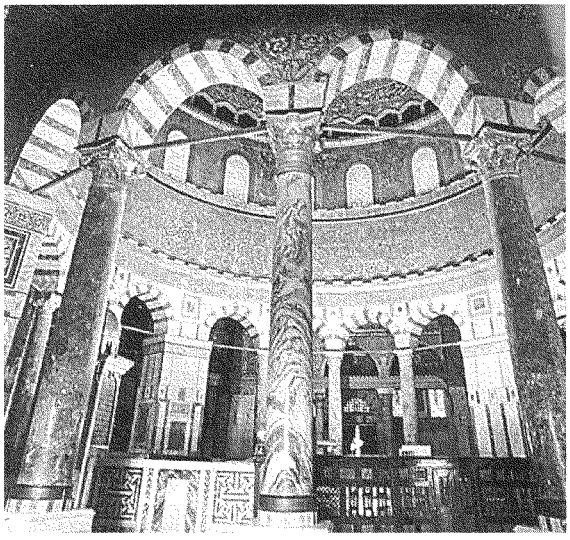

عسكريّ كامل، مُدجَّجين بالبنادق المتدلّية من أعناقهم. نظر إليّ الضابط الآمر؛ ابتسم وقال: «السلام عليكم» فرددتُ: «وعليكم السلام.» خفضتُ رأسي ونفضتُ الغبار عن جينزي. حين رفعتُ رأسي التقت عيناي بعينيْ فتاة إسرائيلية جميلة جدًا في زيّ عسكري بصحبة زملائها الجنود، ومن عنقها تتدلّى بندقية. عيناها خضراوان. شعرُها بنيّ فاتح. متوسطةُ الطول. قوية البنْية بعض الشيء. تَحْمل خوذتَها بيدٍ، وتربِّت على بندقيتها بيدها الأخرى. نظرتْ إليّ لبضع ثوانٍ. خَفَضتُ بصري، وتخلّفتُ عنهم. كانوا من الخلف يَبْدون لعوبين جدًا، بل ومقَهْقِهين أيضًا

ببطء تبعْتُ الجنود الإسرائيليين إلى خارج المقبرة. عند البوّابة رأيتُ المجموعةَ نفسَها من الجنود يجلسون في إحدى الزوايا ويتحدّثون. لمحتُ الفتاةَ الجميلة تتحدّث مع جنديّ زميل لها، حين استدرتُ يسارًا ومشيتُ باتجاه السوق كانت الدكاكين مغلقة لأنّ اليوم جمعة. عدتُ إلى شارع صلاح الدين لأتبضّعَ قليلاً قبل صلاة الظهر. وهناك كانت بعض المخازن في الساحة الرئيسة أمام المدينة القديمة مفتوحةً. اشتريْتُ بعض المناديل الحمراء والزرقاء، وسلسلةً ذهبية، وكيلوغرامًا من الزعتر

بحلول الساعة الحادية عشرة كنت قد وضعتُ الزعتر ومشترياتي الأخرى في غرفتي في فندق الميلاد وعُدتُ باتجاه الحرم الشريف لأنّني أردتُ أن أصلّي صلاة الجمعة. احتفظتُ بالتراب الفلسطيني الذي كنتُ قد جمّعتُه من ضريحَي الصحابيين في الكيس ووضعتُه في جيبي. وخلال الساعتين أو نحوهما من مغادرتي المكانَ للتبضع يبدو أنّ الجيش الإسرائيلي بأَسره قد انتقل إلى الشوارع المحيطة بالحرم الشريف. التقيت بمئات من الجنود المراهقين الذين يَجْمعون ـ في مزيج غريب ـ بين الأهبة العسكرية والمرح الصبياني بدوْا وكأنّهم متحمّسون للخروج في رحلة بيكنيك، لا يتوقّفون عن الكلام والضحك، يحملون تشكيلةً من البنادق المتدلّية من أعناقهم، ويرتدون جميعُهم زيًا لمكافحة الشّغب. وكانت هناك

أيضًا جموع فلسطينية تتحرّك عبر أزقة السوق باتجاه الحرم الشريف. تدفّق الحشدُ الفلسطيني وجرفني معه إلى الساحة الأساسية، التي كانت مغطّاة تمامًا بالمتعبِّدين المستعدِّين لإقامة صلاة الجمعة. كان هناك ماءٌ جارٍ في زاوية عند شجرة زيتون، حيث انضممتُ إلى مجموعة من الشبّان وتوضّأت. لم أستطع أن أتذكّر تمامًا كيف أقوم بذلك، لذا قلّدتُ الناسَ قربي كانوا يتوضّأون على نحو مغاير قليلاً لما تذكّرتُه من طفولتي، حين كانت أمي تأخذني إلى مقام الإمام الشيعي الثامن في «مشْهد» في إقليم خراسان في إيران ثم تبعتُ الفلسطينيين باتجاه المسجد الأقصى.

بدأتُ صلاتي مع الآخرين، وأنا أتذكّر حين علمتني أمي أول مرة كيف أتلو القرآن في جامع قوهرشاه عند ضريح الإمام رضا في مشهد. الأرجح أنّني كنتُ في السابعة أو الثامنة من العمر. تذكّرتُ أهلي، وتذكّرتُ ولديّ، وتذكّرتُ كلّ قريب وعزيز إليّ، على هذه الأرض الطاهرة ـ الموقع المقدّس للديانة التي شكّلتْ وعيي، الموقع الذي نؤْمن أن نبيّنا صَعدَ إلى السموات منه. لم أكن قد صلّيتُ منذ كنتُ في الحادية عشرة. وها أنا الآن في الثانية والخمسين، في جيْبي حفنةٌ من التراب الفلسطيني أريد أن آخذها إلى لبنان، وأن أذهب إلى برمّانا، لأنثرها على المثوى الأخير لصديقي الراحل إدوارد سعيد. هذا التراب ينتمي إليه؛ وهو ينتمي إلى هذا التراب؛ ولن يَرْقد إدوارد بسلام إلاّ تحت ترابه

«أَشْهد أنْ لا إله إلاّ اللّه،» قلتُ في جمع من إخوتي الفلسطينيين، «وأَشْهد أنّ محمّدًا رسولُ اللّه.» ثم أضفتُ في عقلي: «وأَشْهدُ أنّ عليًا وَلِيُّ اللّه.»

❖ ❖ ❖

ما كادت الصلاةُ توشك على الانتهاء حتى سمعتُ فجأةً صيحات «اللّه أكبر،» تَخْترقُها أصواتُ انفجارات ورصاص من مختلف أرجاء الساحة. لاحظتُ اضطرابًا من خلفي. استدرتُ فشاهدتُ حشودًا من المصلّين في حيص بيص. وراءهم، وراء قبّة الصخرة، استطعتُ أن أرى صفوفًا من القوات الإسرائيلية تقتحم الحرمَ الشريف في تشكيلات حربية قادمة ـ كما يبدو ـ من جهة باب المغاربة بدأ الإسرائيليون يقذفوننا بقنابل الغاز، ثم بدأت أعمدةٌ من الدخّان الأبيض تَفْصل صفوفهم المتقدّمة عن تشكيلاتنا المضطربة. بغتةً سمعتُ أصوات انفجارات لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا تكون، ولا من أين تأتي. بدأتْ عيناي تَشْعران بالحرقة، وغدوتُ خائفًا. أحد الشباب الفلسطينيين ابتسم ابتسامة واسعة حين لاحظ خوفي وذهولي: «لا تَخَفْ حبيبي،» قال، «هذه قنابل صوتية » لم أفهم أبدًا ما عناه. لم أشاهد أحدًا يرمي حجارة على الجنود الإسرائيليين من حولي بل لم أر حصًى ولا حجارةً على أرض الساحة كلّها ـ إلاّ ورائي، إلى يسار المسجد الأقصى حيث كانت تجري أعمالُ بناء أو تنقيب أو ترميم (لم أستطع التحديد). وكنت قد رأيتُ حادثةَ رمي للحجارة بعد ظهر الأربعاء في ٢٥ شباط، حين كان الجيش الإسرائيلي يَنْهب البنكَ العربي وسط رام اللّه لكنّ الوضع مختلف تمامًا اليوم فثمة الآن هدوء بل واسترخاء لدى الطرفيْن، كأنّهما طرفان في لعبة يلعبانها لا احتكاك جسديًا بيننا وبين الإسرائيليين، بل اندفاع مرتعد للناس في الصف الأمامي في مواجهة الجيش. بغتة وراء ظهري، سمعتُ صَلْيةَ نار مفاجئة افترضتُ (أو أمِلْتُ) أنّها رصاصٌ مطّاطي («نعم يا أخي ـ الرصاص المطّاطي») أصبح الحشد حولي شديدَ العصبية، ودُفعتُ أرضًا، وفقدتُ توازني مضتْ ثوانٍ من الذعر لم أعْلم خلالها ما يحدث تمامًا من فوق رأسي ولكنّي نهضتُ ومشيتُ باتجاه مقبرة باب الرحمة ومُصلّى مروان، إلى يسار قبة الصخرة. المكان هناك أوسع وأمَن قليلاً، قلتُ في نفسي

بعد أن التقطت أنفاسي وأَعَدْتُ دراسة مكاني بالنسبة إلى بقية الساحة، رجعتُ باتجاه الأقصى والصخرة، فلاحظتُ أنّ الناس باتوا أكثر استرخاءً وتحدُّثًا، وذلك مع بدء الجنود الإسرائيليين بالتراجع والانسحاب من الساحة اللافت في هذه الحكاية كلّها هو الروح المهرجانية في الناس، على الأقل أولئك الذين كانوا حولي أما الأكبرُ سنًا فكانوا أكثرَ غضبًا وهياجًا؛ في حين كان الفلسطينيون الأحدثُ سنًا مرحين جذلين، يَقْذفون بشتائمهم في اتجاه الإسرائيليين («يا إخوات الشرموطة!»، «كُسْ أُمّكم!») في كوريوغرافيا جماعيةٍ أداءً وتنظيمًا فتّشتُ عن كيسي البلاستيكي في جيبي، لم أخرجْه، بل اكتفيتُ بتحسُّس التراب بين أصابعي. ومع بدء الإسرائيليين الانسحابَ ومغادرةَ الحرم الشريف بدأ الحشدُ الفلسطيني بالتضاؤل تبعتُ الحشد ودخلتُ الشوارع الملتفة حول الساحة واتّجهتُ عائدًا إلى الفندق.

❖ ❖ ❖

لم تُتَح لي فرصةُ زيارة الحرم الشريف ثانيةً أثناء تلك الرحلة، وأمضيتُ معظمَ وقتي بين نابلس والناصرة ورام اللّه والقدس. غادرتُ فلسطين من نقطة تفتيش بن غوريون يومَ الاثنين في الأول من آذار لكي أعود إلى نيويورك فأحضرَ المراسمَ التأبينية التي نظّمتها جامعةُ كولومبيا لإدوارد سعيد وكانت مريم سعيد وعقيل بلغرامي قد طَلبا منّي قبل أن أسافر إلى فلسطين أن أكتب مقالةً تأبينيةً قصيرةً لتُنشر في كتاب صغير كانا يُعدّانه للمناسبة فكتبتُ قطعةً قصيرة بعنوان «الوقوف إلى جانبِ سعيد،» وأرسلتُها بالإيميل إلى عقيل بلغرامي قبل أن أسافر إلى فلسطين.

غير أنّ الخروج من نقطة تفتيش بن غوريون أصعب بكثير من دخولها إحسان، وهو سائق تاكسي فلسطيني وصديقٌ لأيمن، أخذني أنا وفيصل حصايري من فندق الميلاد إلى بن غوريون. عند أول حاجز قبل دخول المطار أوقفَنا الجنودُ الإسرائيليون

وطلبوا منّا أن نَرْكن سيّارتنا جانبًا. تفحَّصوا جوازاتنا ونظروا إلى حقائبنا. طلبوا منّي أن أحمل حقيبة ظهري وأن أذهب فأجلس على «بنكٍ» بجانب موقعهم ففعلت وطلبوا من إحسان أن يفتح صندوق سيّارته وغطاءها الأمامي وأبوابَها الأربعة وأن يذهب ليجلس إلى جانبي أما فيصل فطلبوا منه أن يَدْخل إلى موقعهم مع كلّ معدّات التصوير التي يملكها. وفي الوقت الذي كنّا أنا وإحسان جالسيْن على البنك ننتظر ونشاهد، جاء جنديان إسرائيليان ببعض كلاب الجيرمان شيبرد وبمختلف أنواع المعدّات، وبدأ الجميع بتفتيش سيّارة إحسان من الداخل والخارج.

بعد تفتيش دقيق استغرق حوالى الساعة، سُمح لنا بالذهاب أوقف إحسان سيّارته عند مدخل قسم المغادرة ودّعنا إحسان، وغادَرَنا ثم توادعنا أنا وفيصل ما إنْ دخلنا قاعة المغادرة؛ فقد كان يحتاج إلى إيجاد عربةِ يدٍ تَحْمل معدّاته، وكنتُ حريصًا على عدم تفويت موعد سفري. وكان موعد سفر فيصل إلى روما بعد رحلتي إلى نيويورك (عبر زوريخ) بدقائق.

خطوط كثيرة متمعّجة لا تنتهي تنتظر المسافرين حالَ دخولهم قاعةَ المغادرة بعد أن انتظرتُ ساعتيْن تقريبًا ليتمّ فحصُ حقيبة ظهري الصغيرة وجواز سفري وتذكرتي بدا الارتباكُ واضحًا على وجه المراهق الإسرائيلي المسؤول عن الأمن حيث أَخْضعتُ أشيائي لمراقبته لا أدري إنْ كانت كلمة «إيران» أمام خانة «بلد المنشإ» في جوازي، أو لحيتي المبيضّة، أو اسمي الأولُ العربي، أو اسمُ عائلتي غيرُ القابل للتحديد، أو الإشاراتُ والطوابعُ التي تُبيِّن أنّني سبق أن زرتُ لبنان وسورية ومصر والإمارات العربية المتحدة والمغرب . هي ما دَفَعَه إلى أن يُبقيني واقفًا أمام الشريط الأمني الإلكتروني الضخم، وإلى أن يختفي بين حشد من المراهقين الأمنيين الآخرين ليسألهم في أيّ خانةٍ أمنيةٍ يضعني وسرعان ما أدركتُ أنّ الخطر الأمني الذي يَفْرضه أناسٌ مثلي على العالم بأَسره ذو لون محدّد المشكلة الوحيدة هي أنّ المراهق الإسرائيلي لم يستطع أن يقرِّر ما إذا كنتُ في الخانة الصفراء أو الحمراء وبعد استشارة زملائه قرّر أنّ مستوى الخطر الأمني الذي أُشكِّله أصفر، وذلك يعني أنّه قد عُيِّن لي فقط مراهقان من النينجا وكلبُ جيرمان شيبرد للتيقّن من أنّني لن أسبِّب أيّ مشكلة.

المراهقان الإسرائيليان، يتبعهما كلبُهما الجيرمان شيبرد المجتهد، قبضا على حقيبتي الخضراء، وأرسلاها عبر شريط التفتيش الإلكتروني بحثًا عن متفجِّرات وأسلحة دمار شامل ونحوها، ثم تلقّياها من الجهة الأخرى، وطلبا منّي أن أنضمّ إليهما عند إحدى المناضد، حيث وضعا حقيبتي بعناية شديدة وفَتحا سحّابات كلّ جيوبها وأخرجا كلّ أغراضي، ونصفُها حِزَمٌ مختلفةٌ من الزعتر كنتُ قد جمّعتُها من مدن فلسطينية مختلفة، والنصفُ الآخر عبارةٌ عن ملابسي ونحو ذلك، فضلاً عن كتاب جون ستاينبك **شرق عدن** الذي كنتُ أقرأه، وحقيبةٍ تحتوي فرشاةَ أسناني ومعجونَ أسناني ومجموعةً من أدويتي

فرَشَ المراهقان كلّ أغراضي براحةٍ وسخاءٍ على المنضدة ليراها جميعُ من في المطار، وليشمَّها كلبُهم الشكّاكُ ويَفْحصها أحدُ المراهقين أَخْرج كشّافًا معدنيًا، على رأسه ما يُشْبه وقاءً صحيًا للأذن، وأَخْضع كلّ أغراضي لهذه البِدْعة، حتى وصل ـ كيفما اتّفق ـ إلى أحد ملابسي الداخلية القصيرة الملوّنة مراهقة ثالثة متفهِّمة، لم تكن قد عُيِّنتْ لي في الأصل، سألتني إلى أين أسافر، وحين قلت إلى نيويورك أَدْركتْ أنّ مستوى الخطر الأمني (ذا اللون الأصفر) الذي أُشكِّله للعالم سيفوِّت عليّ الطائرة فقبضتْ على جوازي وتذكرتي، في حين كان رفاقُها يشمّون ملابسي الداخلية ويُفْرغون معجونَ أسناني، وأَسْرعتْ بي لتسجيل إجراءات المغادرة

وقفتُ هناك أتطلّع إلى مراهقة أخرى تضع يدَها في الجيب الصغير من حقيبة ظهري وتُخرج الكيسَ البلاستيكي الذي كنتُ قد وضعتُ فيه ترابَ فلسطين. فقدّمتْه إلى الكلب الذي شمشمه بشكّ وبدا متحيِّرًا قليلاً وضائعًا فَتَحتْ سحّابَ الكيس وتناولت الترابَ بأصابعها المغطّاةِ بقفّاز، وسألتني ما يكون قلت إنّه تراب من ضريحيْ صحابيَّيْن من صحابة نبيّ الإسلام، هما الصحابي الجليل عبادة بن الصامت (توفّي عام ٣٤ هـ) والصحابيّ الجليل شدّاد بن أوس (توفي عام ٥٨ هـ) أغلقتِ السّحاب، وأخذت الكيسَ، واختفت خلف باب مغلق، في حين تناول زميلُها آلتي الـ iPod البيضاء وسألني ما تكون. iPod،

قلتُ. ماذا فيها؟ سأل أُم كلثوم، قلتُ، وعدّةُ كَنْتاتات لباخ إنْ كان يهمّه أن يَسمع، وكثيرٌ من عبد الباسط، ثم أغانٍ لمحمد رضا شجاريان وعبد الحليم حافظ ؛ إلاّ فيتزجرالد أيضًا مع كيري تكاناوا، وبيلي هوليدي، وبعض شهرام ناظري، فضلاً عن مَضِي واترْز وفيروز وموزارت، ودون جيوڤاني كاملاً، وبعض أغاني جون لي هُووكِرْ، إضافةً إلى جون كولتراين وستان غَتْز وديزي غيليسپي و... ظنّ أنّني نطقتُ بما فيه الكفاية. أخذ آلتي الـ iPod وذهب في الاتجاه الذي كانت زميلتُه قد اختفتْ فيه هي وكيسي المحشوّ بالتراب الفلسطيني. وقفتُ هناك أمام مجموعتي من الزعتر وأمام ثيابي، مبعثرةً جميعُها على المنضدة. وقفتُ هناك بلا هدف، لا أعرف ما أفعله تناولتُ كتابَ **شرق عدن** وبدأتُ أقرأ من صفحة كيفما اتفق. كانت الصفحة تتحدّث عن كيف خَدّرتْ كاثي آيمز زوجَها آدم تراسك ليلةَ عرسها، وكانت على وشك أن تنام مع أخيه تشارلز. إنّني ما فتئتُ أعتقد أنّ خنوع آدم تراسك المُفرِط كان نوعًا من الكفّارة يَدْفعها عن كلّ الأميركيين الأصليين الذين شارك في قتلهم، أو تحذيرًا قَبْليًا من تأنيب ضمير سيصيب أمةً كَبتتْ حادثةَ كَسْتر في معركة «وُوندِدْ ني.» أَغلقتُ الكتاب ونظرتُ حولي. لقد اشتقتُ للقدس.

جلستُ على حافة المنضدة منتظرًا مصيري نظرت من حولي كان المكان يمتّ إلى المطار بشبهٍ غريب، لكنّ الموقع كان ثكنةً محصّنةً تحصينًا تامًا، وكتائبُ قواته الأمنية تعاملُ كلّ النزلاء العابرين بالقدْر نفسِه من التفاهة. لم يكن المسلمون الملوّنون مثلي هم وحدهم مَنْ يعامَلون كأنّهم كيماويّات خطرة، بل كلُّ الناس. إنّ ما يسمُّونه «إسرائيل» ليس فقط دولة عسكرية. ذلك أنّ نزعة عسكرية مبطّنة، وخداعًا منهجيًا ذا عنف متأصّلٍ في انصهار نسيج المجتمع، قد اخترقا أعمقَ زوايا ما على هؤلاء الناس أن يسمُّوه «روحَهم.» فما يرتكبه الإسرائيليون بحقّ الفلسطينيين ينعكس مرآويًا على أرواحهم هُمْ ـ الملطَّخةِ، المُفْرَغةِ، المنفيّةِ، المحتلّةِ بآلة عسكرية تعمل دون أن تكون موصَّلة إلى أيّ مَنْفذ كهربائي! إنّ الأرض الفلسطينية ليست كلَّ ما احتلّوه؛ فروحُهم نفسُها أرضٌ محتلّة، احتلّتْها قوةٌ ميكانيكية معدّةٌ للتدمير الذاتي. إنّهم في طيّارات بدون طيّار. هذا هو هُمْ لا أحد هناك يسيطر على أيّ شيء. إنّ نصف قرن من التشويه والقتل المنهجيّيْن لشعب آخر قد خَلّفَ آثارًا عميقة على وجوه هؤلاء الناس، على طريقة كلامهم، وطريقة مشيهم، وطريقة تعاملهم مع الأغراض، وطريقة ترحيب واحدهم بالآخر، وطريقة رؤيتهم إلى العالم. ثمة كذبٌ مستوطِنٌ في هذه الآلة، وابتذالٌ للشخصية في أعمق أعماقها وفي بنية الفقارات العظميّة لحضارتها. لا شعب يُمْكن أن يَرْتكب ما ارتكبه هؤلاء الناسُ وأهلُوهم وأجدادُهم بحقّ الفلسطينيين ويبقى محصّنًا ضدّ وحشيّة أفعالهم ذاتِها جلستُ هناك مرعوبًا ـ مرعوبًا لا بسبب خَطَرٍ بعينه، ولا بسبب الآلة الهائلة للقتل والتدمير التي تحيط بي أمام نقطة التفتيش وما وراءها في كلّ زاوية وشقٍّ من فلسطين المحتلّة التي زرتُها، ولا بسبب أيّ بندقية بعينها متدلّيةٍ من رقبة نحيفة، وإنّما مرعوبًا من جرّاء تحوُّل النفس الإنسانية إلى مزيج منحطٍّ من القَرَف والعنف، تحوُّلٍ يَمْنع إنسانًا من الشعور ببساطةِ لمسةِ إنسان، نظرةِ إنسان، صوتِ إنسان. أين تنتهي الإنسانية في هذه المستوطنة الكولونيالية، وأين تبدأ الآلة؟ أهذا هو السبب وراء لامبالاة إسرائيل إلى ذلك الحدّ ـ كمجتمع ـ برأي بقية العالم فيها؟ هل أرييل شارون عَرَضٌ لهؤلاء الناس، أم جزءٌ لا يتجزّأ منهم؟ إنّهم لم يُخضعوني أنا وحدي لهذا التصرُّف ما دون الإنساني، بل كانوا لا يأبهون للأسماء وجوازات السفر والهويّات والقوميات. كل البشر بالنسبة إليهم لم يكونوا قنابلَ محتملةً فحسب بل فعلية، بأجهزةِ توقيتٍ مختلفة مهيّأةٍ لقَدْح التفجير في أوقات مختلفة لكنْ أكيدة. كيف لشعب أن يعيش بخوف كهذا من دون أن يصبح تجسيدًا للخوف؟ لا صوت ضحكةٍ واحدة، ولا مشهد مشي متروٍّ واحد، ليس ثمة مَنْ يبكي لرحيلِ حبيب، ولا مَنْ يَفْرحُ لوصولِ صديق، لا اندفاعَ بشرٍ لعدم تفويتِ طائرة، ولا غريبيْن يتبادلان لمحاتٍ غَزَليةً. قبيل مغادرتي نيويورك شاهدتُ اقتباسَ أورسون ولز لـ **محاكمة** كافكا (١٩٦٢)، وأحسستُ أنّني في خضمّ متاهة كابوسيّة من الخيالات الميتة والحماقات المتعرِّجة. رفعتُ يدي اليمنى ولمستُ كوعي الأيسر، فيما أنا أنظر إلى نفسي أقوم بذلك كنتُ باردًا كالأموات.

صرتُ الآن شبهَ متيقّن من أنّني سأفوّت رحلتي إلى زوريخ. فالجندي المراهق الذي أخذ آلتي الـ iPod عاد خاليَ الوفاض وطلب منّي أن أَدْخل إلى غرفة صغيرة عند زاوية منضدة التسجيل تلك تركتُ أغراضي وحقيبةَ ظهري على المنضدة وتبعتُه إلى هناك، حيث طلب منّي أن أَنْزع حزامي وأن أَخْفض بنطلوني. ففعلت مدّ الصبي يده إلى ملتقى فخذيّ نظرتُ إلى حذائي، كان بحاجة إلى تنظيف جدّيّ، كان شكله بائسًا الصبيّ ـ الذي بدا شبيهًا بابني «كاڤيه» وإنْ أصغر قليلاً مع أنّ جلده أغلظُ ممّا يَسْمح به عمرُه الفتيّ ـ ثنى حزامي وأبقاه قريبًا من عينيه. بدت عيناه تعبتيْن. لم تكونا خضراويْن مثلَ عينيْ تلك الجندية الإسرائيلية التي رأيتُها في الحرم الشريف لم يكن لعينيه أيُّ لون. كانتا تعبتيْن فحسب وقد أَظهر خدّاه المجوَّفان ووجهُه المطوط أنّه يَعْمل منذ وقت طويل. أيُّ ساعة استيقظ هذا الصباحَ؟... الإسرائيلي المراهق المسؤول عن تقدير الخطر الذي أُشكّله على العالم أعاد إليّ حزامي وطلَبَ منّي أن أَخْلع حذائي. انحنيتُ، فيما كنتُ أحاول أن أمنع بنطلوني من السقوط، وحلَلْتُ حذائي وأعطيتُه إيّاه. بدأ بفحصه. كنت على وشك إعادة حزامي إلى مكانه حين أَخْرجت المراهقةُ الإسرائيليةُ ـ التي كانت قد أَخَذتْ كيسي المليءَ بالتراب الفلسطيني ـ عُنُقَها من وراء ستارة، وبنظرة سريعة إلى داخل الغرفة طلبتْ منّي أن أتبعها. تبعتُها، وأنا أحمل بنطلوني بيد، وأُمْسك حزامي باليد الثانية، وبقي حذائي ورائي لتفتيشٍ أدقّ على يد المراهق التعب داخل الغرفة. كانت أرض المطار باردة، وشعرتُ بغثيانٍ لعين وبُصداعٍ يَضْرب رأسي.

ذهبتُ وجلستُ على حافة المنضدة، وحزامي بيدي، فيما كنتُ أحاول أن أمنع بنطلوني من السقوط نظرتُ إلى الأكياس المبعثرة من

الزعتر، وإلى قمصاني، وفرشاةِ أسناني، ومعجون أسناني. كان المراهق الآن يُقلِّب بإبهامه كتابَ ستاينبك **شرق عدن**، متفحِّصًا عن كثبٍ الصفحةَ التي أَضرمتْ فيها كاثي آيمز النارَ في بيت أهلها أيُّ مثيرةٍ للمتاعب كانت كاثي آيمز تلك! الفوضى والدمار يلاحقانها أينما ذهبتْ! خرج المراهقُ ذو العينين التعبتيْن والخدّيْن المجوَّفيْن من الغرفة وأعاد إليّ حذائي وشجّعني على ارتدائه. شكرتُه، انحنيتُ وانتعلتُه. حين نهضتُ لاحظتُ أنّ كلّ أغراضي، الزعتر والأشياء الأخرى، قد أعيدتْ إلى حقيبتي. «أين ترابي من الصحابيّ الجليل عبادة بن الصامت (ت ٣٤ هـ) والصحابيّ الجليل شدّاد بن أوس (ت ٥٨ هـ)؟» سألتُ. «إنّه في حقيبتك،» قالت «وأين آلتي الـ iPod؟» أكْملتُ. «إنّها في حقيبتك.» لم أكن أستطيع التأكّد ممّا قالته، ولكنّها بَدَتْ «نينجا» جديرةً بالثقة.

كنتُ أربط حزامي حين اتّجهت المراهقةُ الثالثةُ المتفهّمةُ سريعًا نحوي، حاملةً جوازَ سفري وبطاقةَ الإذن بالإقلاع. «رجاءً اتبعني،» قالت. شكرتُ المراهقيْن الآخرين، وأخذتُ حقيبةَ ظهري الخضراء. نظرتُ إلى الكلب الذي يقوم على خدمة رفاقه بإخلاص، وتبعتُ المراهقةَ اليقظة الضمير ما زالت أمامي ثلاثُ أو أربعُ نقاط تفتيش، ولكنّها ساعدتني على عبورها كلِّها، فيما أنا أحاول أن أُزرِّر بنطلوني وأن أضع حزامي في مكانه عند نقطة التفتيش الأخيرة أعطتني المراهقة جوازَ سفري وإذنَ الإقلاع، وقالت شيئًا مثل «رحلة آمنة!» (أو ذلك ما ظننتُ أو أملِتُ أنّها قالته). قلتُ «شكرًا لكِ» وأَسْرعتُ لعبور نقطة التفتيش الأخيرة. أمامي عائلة من سبعة أشخاص ـ زوجان شابّان وأولادهما الخمسة، وكلُّهم ذكور على رؤوسهم القلانسُ اليهودية الأم حامل، والأب يغمغم شيئًا لنفسه، والأولاد يأكل كلٌّ منهم همبرغر ماكدونالدز ـ أَفْترض أنّ ماكدونالدز يصنع همبرغرًا حلالاً لليهود. أحسستُ بالغثيان الشديد.

لحسن الحظّ أنّ بوّابة سفري كانت قريبةً جدًا من نقطة التفتيش الأخيرة. حين دخلتُ الطائرة كان الجميع ينظر إليّ نظراتِ اشمئزاز لحملي إيّاهم على الانتظار. ليتني كنتُ أعرف كيف أقول «آسف» بالعبرية. لكنّ نصف المسافرين، كما ظننتُ، بدوا أنّهم من بروكلين.

بعد ساعة تقريبًا، كنّا نطير فوق المتوسط. أصبتُ بالذعر. أين كيسي البلاستيكي المليء بالتراب من ضريحي الصحابيّيْن الجليليْن؟ نهضتُ وأنزلتُ برفقٍ حقيبةَ ظهري الخضراء من الخزانة التي فوق رأسي نظر إليّ الناسُ من حولي نظراتِ اشتباه. جلستُ وفتحتُ السحّابَ الأساسي من الحقيبة. كانت الفوضى عارمةً. وجدتُ كيس زعتر مدحوشًا في منتصف الفصل العشرين من كتاب ستاينبك، تمامًا حيث كانت الخائنة كاثي آيمز منهمكةً بتسميم مِسْ «فاي» الطيِّبةِ القلب من أجل أن تَرِثَ بيتَ دعارتها. أيُّ مسبِّبةٍ للمشاكل كانت كاثي آيمز تلك! إنّ مِسْ فاي بالنسبة إليّ هي نموذجُ الوداعة والاستقامة الأخلاقية التي لا تفوقها استقامةٌ ـ ومع ذلك فبأيّ قساوةٍ منهجيةٍ سمَّمَتْها كاثي آيمز

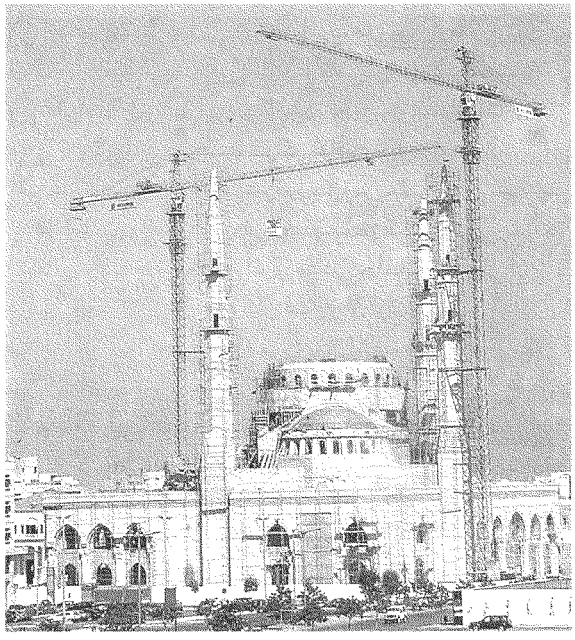

وقتلتْها! لا صبرَ لي على من يحاول أن «يتفهّم» كاثي آيمز، فليس ثمة ما يستدعي التفهُّم، إنّها شيطانيةٌ فحسب. نقطة على السطر أيُّ فوضى ـ ولا دليل على وجود كيسي المليء بآتربةٍ من فلسطين. مددتُ يدي إلى الجيب الأصغر من حقيبتي وفتحتُ السحّاب، وهناك ـ مدسوسًا برفقٍ بين أكياسي المليئة بالزعتر من القدس ورام اللّه والناصرة ونابلس ـ كان كيسُ التراب الفلسطيني فتحتُه برفق وشممتُه. تضوّعتْ رائحةُ التراب النديّ والزعتر المعطّر أغلقتُه وأعدتُه إلى مكانه. أغلقتُ عينيّ وحاولتُ أن أستريح. كان المسافرون الآخرون من حولي يتحدّثون دون توقف، كلُّهم تقريبًا في الوقت نفسه، إزاء أذنيّ التعبتيْن وصداعي المُغْثي، وبمزيج لا يُمْكن فكُّ شفرته من إنكليزية بروكلينية وعِبْرية لا تَرْحم. تناولتُ آلة الـ iPod وأدرتُها. لا دليل على وجود أيٍّ من تسجيلاتي أدرتُ مفتاحَ الصوت طلوعًا ونزولاً. لا شيء لقد مُحِيتْ آلتي من كل ذاكراتها الموسيقية. أطفأتُها وأعدتُها إلى حقيبتي أغلقتُ عينيّ وحاولتُ أن أُلاشي كلّ الأصوات المحيطة «إنّنا الآن نَحُوم على علوّ ٣٥ ألف قدم،» قال قبطانُنا بإنكليزية بروكلينية.

❖ ❖ ❖

تمكّنتُ من الوصول إلى نيويورك لأحضر حفل تذكار إدوارد سعيد في جامعة كولومبيا في الثالث من آذار ٢٠٠٤ كان هناك جمعٌ ضخم قد احتشد، وحضر كثيرٌ من أصدقاء إدوارد. نادين غورديمر كانت هناك، وكذلك داني غلوفر، وڤانيسّا رَدْغرايف، وسلمان رشدي، ودانيال بيرينبويم. لكنّني على امتداد المراسيم، كلُّ ما كنتُ أفكّر فيه، خاصةً حين رأيتُ وجه إدوارد على الشاشة الهائلة حيث عرضوا فيلمًا وثائقيًا عنه، هو أن أنهي عملاً ما بالتراب الذي جمَّعتُه من فلسطين، والمدسوسِ بأمانٍ في أصغر جيب من حقيبة ظهري الخضراء

❖ ❖ ❖

في العشرين من تموز ٢٠٠٤ سافرتُ من نيويورك إلى بيروت كنتُ قد انضممتُ إلى فريق صغير من شباب لبنانيين وفلسطينيين ناشطين في مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين بطرق متعدّدة، ولاسيّما في إنشاء مراكز ثقافية شبابية، فدعوني إلى أن أستكشف معهم إمكانيات عرض جزءٍ من مشروعنا الفلسطيني السينمائي «أحلام أمّة» في المخيّمات كانت هذه الرحلة في الأساس رحلةً استطلاعية، لنرى ما هي حاجاتنا وما هي المعدّات والبنى التحتية اللازمة وكان مهرجان لوكارنو السينمائي قد دعاني إلى أن أكون عضوًا في هيئة التحكيم في آب ووافقوا ـ بكرم ـ على تمويل رحلتي إلى لبنان وسوريا لزيارة المخيّمات الفلسطينية لهذا الهدف غادرتُ مطار نيويورك ليبرتي في المساء الباكر يوم الثلاثاء وهبطتُ في بيروت يوم الأربعاء ـ بعد توقّف قصير في باريس ـ الساعة ١٠٣٠ من بعد الظهر بتوقيت بيروت سافرتُ بحقيبة ظهري الخضراء المعتادة، وفي أحد جيوبها الصغرى جلبتُ معي الكيسَ البلاستيكي الذي يحتوي ترابَ فلسطين كنتُ قبل مغادرتي نيويورك قد طلبتُ من مريم سعيد، وسمحتْ لي بكرمٍ، أن أنثر هذا الترابَ على قبر إدوارد

استقبلتني رشا السلطي عند مطار بيروت، وطوال أسبوعين سافرنا عبر لبنان وسورية، وزُرنا المخيّمات، وعرضنا الأفلام، وأنجزنا تقريرًا أوّليًا عمّا نحتاجه وفي الخامس والعشرين من تموز الساعة ٣٣٠ من بعد الظهر استأجرنا أنا ورشا سيارةَ تاكسي من أمام فندق مايفلاور في رأس بيروت وذهبْنا إلى بلدة برمّانا في جيبي الأيمن من الجاكيت حملتُ الكيس البلاستيكي الذي يحتوي التراب الفلسطيني

ثمة شيء معلّق في روح بيروت، المعرّاة، التي نَجَتْ من الحرب الأهلية اللبنانية يومَ وصلتُ إلى بيروت كانت الطائرات الإسرائيلية قد خَرقتْ جدارَ الصوت فوقها. «إنّه أشبه باغتصاب السماء،» قالت لي رشا ذلك اليوم بعينيّ المجرّدتيْن كنت أرى بيروتَ قطعةَ «ميلْ فويْ» (ألف ورقة) من المآسي المتطاولة المضفورة بطبقاتِ «كريمْ» من الآمال العذبة تَقْضم قضمةً واحدةً من بيروت، فلا تَعْرف إنْ كنتَ ستضحك مع فرح اللبنانيين أو تبكي من ألمهم. فبيروت ماتزال طائفيةً بشكل مَرَضيّ، غير أنّ شيئًا في صميم هذه الطائفية يرغب في أن يُزْهِرَ بالتسامح الديني. من الحفلات الخاصة إلى موظّفي فندقٍ متواضع، يستطيع المرءُ أن يرىُ عيّنةً من المجتمع اللبناني ـ سُنّةً، وشيعةً، ومسيحيين، ومُلْحدين مبارَكين، يتقاسمون الطعامَ نفسَه، ويتحدَّوْن المصيرَ ذاته، ويتذكّرون المخاوفَ عينها، ويُغَذّون الآمالَ المشتركة، ويَصْنعون القَدَر المشترك، ولكنّهم يتحدّثون عن هويّات طائفية، وكأنّهم يتكلّمون عن شعبٍ آخر في كوكب آخر!

إنّ بيروت، كمدينة، هي مزيجٌ غريبٌ عجيب من التفاهة المابعد حداثية، والإحساس العميق بالمأساة العصبية ينتشر على مساحة وجهها. فالذكريات القديمة عن الحرب الأهلية ـ من مبانٍ متهدِّمة، وثقوبٍ أحدثها الرصاصُ على شكل متعرّج في واجهات المباني المهجورة، وصورٍ ونُصُبٍ لشيوخ ومشعوذين أيقونيين، ومخيّماتٍ فلسطينيةٍ طافحةٍ بالفقر الفظيع، ومثقفين لبنانيين متغندرين ينظِّمون مهرجانات فنيّة بالفرنسية ـ تتنافس مع وسط بيروت التجاري «الحريري،» المصنوع مِن التفاهة والغرور ليَحْرف الأعمال المربحةَ والاهتمامَ السعوديَ عن دول الخليج البيروتيون العلمانيون يَكْرهون أن يُسألوا إلى أيّ طائفة ينتمون؛ فهم يؤْمنون بأنّ السياسات العَلْمانية والتقدمية تتعدّى الدِّينَ الذي وُلِدوا وتربَّوا عليه ـ وهم في غالبيتهم كذلك حقًّا ثمة عالمية في ثقافة مثقفي بيروت العموميين، أمثال فوّاز طرابلسي أو إلياس خوري، تتحدّى كلّ الطائفية وتتهجّى رؤيةً إلى العالم العربي والإسلامي ـ وإلى العالم برمّته ـ رائعةَ الشساعة والرحّابة في كوزموپوليتّيتها الراقية ومع ذلك، في جِبِلّةِ النزوع الخطابي عند اللبنانيين، هناك سياساتٌ هويّاتية تكاد تكون غريزيةً تتخطّى حظائرَ وحصونَ تفكيرهم نفسِه الدروز عملوا كذا، والموارنة عملوا ذاك، والأرثوذوكس هم كذا، والشيعة والسنّة والأرمن هم ذاك لكنّكَ لو صبرتَ دقائقَ قليلةً حتى يُنفِّس عن ذلك كلّه في مطعمٍ أرمنيّ، فعندها يتغلّب أفضلُ ما عند اللبنانيين (وهو أكلُهم) على أسوإه (أيْ سياساتِهم الطائفية). إنّ بيروت تذكّرني دومًا بطهران أيّام الشاه. فقرٌ متفشٍّ يعيث خرابًا في روح المدينة من جهة، وشوارعُ للتبضّع الفاحش يُشير إليها ويراقبها مسجدٌ هائلٌ (مَوَّله رفيق الحريري بنفسه) ليتظاهر بالتشبّه بآياصوفيا من جهة ثانية (يبدو أنّ الحريري وشاه إيران الراحل لا يتشاركان في قِصَر القامة فقط بل في مَيْلهما الفالوسي إلى الإفراط في التعويض المعماري) أعتقد أنّه حين ينتهي بناءُ هذا الجامع ستجد العبثيةُ الأبّهيةُ لمسجد الحسن الثاني في الدار البيضاء نظيرَها! والحال أنّ بيروت مليئةٌ بالمساجد والكنائس وفيها كنيسٌ واحدٌ، وكلُّها استثنائيُّ الجمال. وتلك البشاعة، كما هو حال بقية أموال الحريري السعودية، ستقزِّم هذه الروائعَ وستُلْقي بظلال غير لائقة على روحها النفيسة

كانت الشمس ألطف بكثير حين بدأنا الخروجَ من ضواحي بيروت باتجاه الجبال. وعلى الرغم من أنّ بيروت نظيفة مقارنةً بالحواضر الكبرى، فإنّها ليست مدينةً صحيّةً. إنّها تبدو وكأنّها على وشك الانفجار في أية دقيقة بيْد أنّ الحياة التي تَجْهد في أن تحافظ عليها وسط الأخطار المترصّدة بها وداخل التفاصيل الدقيقة لمطاعمها الصغيرة والمتواضعة (لا الغالية والمبتذلة) هي التعريف الحقيقيّ لاتّزانها وكياستها

الطريق بين بيروت وبرمانا تمرّ بأكثر الأحياء فقرًا وقِدَمًا في البداية مَرَرْنا بسوق الأحد حيث تتبضّع آخرُ موجات من العمّال المهاجرين كالعمّال السوريين والسريلانكيين، كما قالت رشا. والحقّ أنّ لبنان يَزْخر بالعمّال المهاجرين؛ فشاتيلا مثلاً لم يَعُدْ مقصورًا على اللاجئين الفلسطينيين، بل انتقل إليه مهاجرون فقراء من سورية ومصر والعراق وحتى من بنغلادش أيضًا، حيث يتقاسمون مصيرَ الفلسطينيين المتشرّدين (باستثناء أنّ هؤلاء تعرّضوا لمذابح ارتكبتها الميليشياتُ اليمينيةُ لحساب الإسرائيليين، طبعًا) ومن سوق الأحد عَبَرْنا «جسْرَ الباشا،» ثم

أخذنا الطريق الذي يَفْصل منطقةً صناعيةً قديمة تسمّى «سنّ الفيل» (سُمّيتْ كذلك لأنّه، كما قيل، عُثِرَ فيها على بقايا ماموثٍ من حقبةٍ ما قبل التاريخ) عن «النَّبْعة.» وهذه البلدة الأخيرة تستدعي لدى أهل بيروت الأصليين منطقةً صناعيةً أخرى قبل الحرب الأهلية، حيث كان العمّال الفقراء يتجمّعون، لبنانيين وفلسطينيين بشكل خاص. هنا قام اليساريون بأكثر نشاطاتهم التنظيمية، وهنا وقعتْ مجازر منظّمة ضدّ الفقراء بدايةَ الحرب. مباشرةً بعد النبعة بدأت الـ «ميل فويْ» تتغيّر لونًا وطعمًا مع بلوغنا «حرشَ تابت،» وهي منطقة سكنية أنيقة تَمْلك النخبةُ السياسيةُ والاقتصادية فيها ڤيلاتٍ.

عند مستديرة «المكلّس» اتّجهنا صوب المنصورية، وهي منطقة صناعية جديدة، وفيها مدرسةٌ فندقية جديدة. ومن ثم صعدنا إلى وادٍ كان يقع فيه تلُّ الزعتر، الذي شَهِدَ مجزرةً كبرى ضدّ الفلسطينيين. ولكنْ قبيْل أن تتذكّر تمامًا أو تكاد تنسى ذكرى تلّ الزعتر، هناك «بيت مري» الملاصقةُ له تمامًا، وهي منطقة مرفّهة أخرى للسكن والاصطياف وبوصولنا إلى هناك كان الطقس قد تغيّر بشكل ملحوظ ـ فصار أبرد وأنعش وأقلّ تلوُّثًا بكثير. إنّها بلدةٌ أكثرُ سكّانها من المسيحيين، قالت رشا، وقد تدفّق إليها مؤخّرًا السعوديون والخليجيون

بعد بيت مري مباشرةً وصلنا إلى «رومية،» حيث أكبر سجون هذا البلد، وفيه يُسجن المجرمون البالغون والأحداث. وبعده بقليل «برمّانا،» وهي منتجع صيفي يَبْعد حوالى الساعة عن وسط بيروت. اتصلنا بسامي قرطاس، أخي مريم سعيد، وأخذناه معنا من قرب فندق غراند هيلز، فدلّنا على «مدافن جمعية أصحاب الكوايكرز،» وهي مدافن متواضعة تكاد لا تَبين، إلى جانب الطريق الرئيسية في برمّانا كانت بوّابة المقبرة مقفلة، وكان سامي قرطاس يَملك المفتاح. فَتَحَ البوّابة، وتبعتُه أنا وراشا نزولاً على درج يؤدّي إلى حديقة صغيرة مسيّجة مليئة بأشجار الصنوبر وبين أشجار الصنوبر تشكيلةٌ من الكروم والجَنْبات والأزهار كانت هناك قبور متناثرة في كافة أرجاء الحديقة، على غير نظام تَلْحظه عينُ الزائر بوضوح. تَبعْنا سامي قرطاس بضع خطوات إلى أن توقّف أمام قبر يقع إلى يسار الدرج الذي نزلناه عند دخولنا الحديقة. أشار بيده اليمنى إلى القبر وقال: «ها هو.» القبر بسيط، أنيق، بلا تزويقات، تعيِّنه حجارتا غرانيت سوداوان ـ واحدة أفقية والأخرى عمودية ـ وعليه حُفِرَ مولِد ووفاة إدوارد وديع سعيد بالعربية والإنجليزية أول شيء لاحظتُه بشأن القبر هو أنّه يواجه الشرق؛ وهذا توجُّهٌ ملائم. إلى يسار القبر، شجرةُ زيتونٍ بالغة الجمال والقِدَم، وسط فِراش من الزهور البرتقالية والصفراء التامّةِ التبرعُم في تموز حين زُرنا المقبرة. قال لنا سامي قرطاس إنّ مريم سعيد هي التي زَرَعتْ على قبر إدوارد هذا الرمزَ الفلسطينيّ الفريد. ويُمْكن بسرعةٍ تمييزُ هذا القبر عن القبور الأخرى بسبب

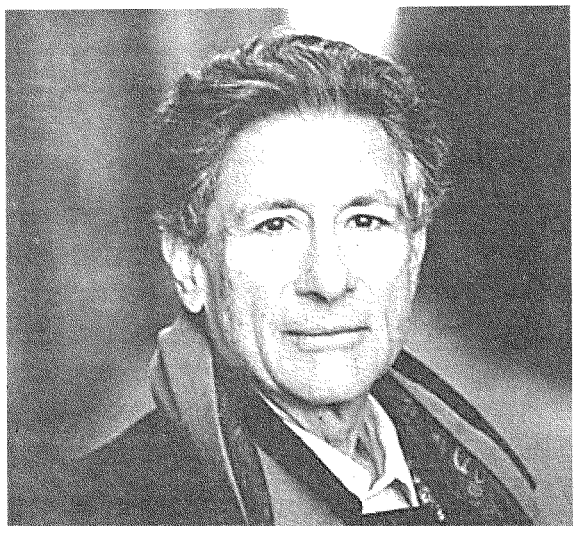

الغرانيت الأسود العمودي والأفقي، في حين أنّ شواهد القبور الأخرى مصنوعة من المرمر الأبيض ومنصوبة أفقيًا «الواقع أنّي تعلّمتُ، وحياتي مليئةٌ إلى هذا الحدّ بتنافر الأصوات، أن أؤثر ألاّ أكون سويًا تمامًا وأن أظلّ خارج المكان،» تذكّرتُ الجملة الأخيرة من سيرة إدوارد الذاتية.

لا بدّ أنّ الساعة كانت قد بلغت الخامسةَ أو السادسةَ عصرًا، وكنّا ثلاثتنا نقف عند قبر إدوارد تحت ظلال كوكبةٍ من الذكريات والأحاسيس أعزَّ من أن يُحَلّ رباطُها كلُّ ما أذْكره الآن من تلك اللحظة هو الحركةُ الرقيقةُ من يد سامي وصوتُه الناعم «ها هو.» ها هو ذا حقًا. أخذتُ الكيسَ البلاستيكي من جيبي، فتحتُه، أَخرجتُ شيئًا منه وأعطيتُه لسامي. يدي كانت مرتجفةً. يده كانت ثابتةً. رأينا أنّ من الأفضل أن نضع الترابَ على فراش الزّهْر تحت شجرة الزيتون التي تُطِلّ على القبر وضع سامي الترابَ على فراش الزّهر أعطيتُ كمشةً أخرى لرشا، ففعلت الأمرَ نفسه أما الباقي فأفرغتُه في يدي ونثرتُه بين الزهور وشجرةِ الزيتون، ثم نفضتُ الكيسَ البلاستيكي فوقه أعدتُ الكيسَ إلى جيبي ونظرتُ إلى قبر إدوارد طلبتُ منه أن يَغفر لي هذا الجزءَ من «عتاقتي» المسلمة. أعرف أنّه كان سيَضْحك عليّ «بروفسور دبّاشي،» (كان دائمًا يضيف عدةَ باءاتٍ في وسط اسمي)، «أنت مثقفٌ ما بعد حداثيّ » وحين أحتجّ يقول: «لا تقلقْ، فأنا مَن اخترَع مفرداتِهم!»

كانت حجارةُ قبره بالغةَ النّصاعة، وكانت تفوح بالثقة وبالحياة التي عِيشتْ جيدًا انحنيتُ وقبّلتُ طرفَ قبره، ثم جلستُ وهَمَستُ ببعض الصّلوات. اشتقتُ إليه. أحسستُ أنّ ثمة شيئًا ناقصًا في رحلة تطوافي في العالم، كأنْ أفْقد عكّازًا، بوصلةً، نجمًا هاديًا، مجرّةً «بالنسبة إليّ، النومُ هو الموت،» تذكّرتُ تعبيرَه القدحيّ في **خارج المكان** نهضتُ وتَبِعتُ رفيقيّ إلى خارج الحديقة. سألتني رشا إنْ كنتُ أريد أن ألتقط صورًا. لا، قلتُ، ونزلنا الدرج.

نيويورك